

أميل برهيه وكتابه الأخير في الفلسفة المعاصرة

للدكتور نجيب بلدى

الاستاذ أميل برهيه أستاذ الفلسفة السابق بجامعة باريس وعضو المجمع العلمى الفرنسى ، ومن أقطاب الفلسفة وتاريخها . كان أول أستاذ للفلسفة بالجامعة المصرية ، عند افتتاحها عام ١٩٢٥ ، ثم جاءها عام ١٩٣١ . وكان له أعظم الأثر فى توجيه أول فوج من الطلاب المصريين فى الفلسفة فى مصر ، وفى فرنسا ثم غرس فى نفوسهم حب الفلسفة ، وأوقد فيهم الحماسة لموضوعاتها ومنهجها ومشكلاتها .

توفى هذا الرجل فى سن الخامسة والسبعين فى أوائل عام ١٩٥٢ . وكان حتى نهاية حياته شابا فى تفكيره ، حيا فى أحاديثه ، قويا فى دفاعه عن المثل العليا ، متحمسا للقيم الروحية ، غنيا فى معارضته لاعدائها ، مستعدا للبحث عن الحقيقة واتخاذ شتى المناهج فى ذلك ، مضحيا باعتاده الفلاسفة من طرق ، دأبا على اختيار أحدثها وأبعدها عن المؤلف حيثما وجد ضرورة لذلك . ولم يكن من بين الفلاسفة الفرنسيين من استطاع مثله مساندة التيار العنيف الذى أحدثته فى العشرين سنة الأخيرة مختلف النظريات الفلسفية والعلمية الجديدة ، بل كان له السبق أحيانا على المفكرين الثبان أنفسهم فى التنبؤ عن خطر منهج جديد أو ثمرة بحث طريف .

وقد رأينا أن تقول كلمة فى مجلة كلية الآداب عن آخر كتاب «أ» نشر له قبل وفاته ، يقص علينا فيه التغير العميق الذى اعترى الفكر الأوروبى المعاصر . والتغير ظاهر له فى موضوع الفلسفة ، فى منهجها ، وفى مختلف المواقف التى انتهت إليها .

Emile Bréhier : *Les Thèmes Actuels de la Philosophie (Presses Universitaires de France, Paris 1951).*

وأغرب ما تظهوره دراسة الفلسفة المعاصرة لهو مع تقارب أوجه النظر بين المحدثين والقدماء ، تباعد مواقف المعاصرين عن أولئك وهؤلاء : نعم قد اتخذ ديكارت « الانسان أو الأنا » نقطة بداية في الفلسفة ، مخاضا في ذلك برنامج الفلسفة القديمة والوسيطه التي أرجعت خصائص الانسان وطبيعته الى مبادئ الكون العامة والاساسية . الا أن ديكارت رأى في الانسان كائنا حائزا على سلطنة فكرية عظيمة وعلى قوانين ثابتة تجعل منه مركز الكون وأساس الموضوعات والعلوم معا . فكأن مبادئ الكون التي بحث عنها القدماء والوسيطون ، قد انتقلت عند المحدثين الى العقل الانساني ، فطبعت عليه علامات الحقيقة الموضوعية طبعا نهائيا .

أما منهج المحدثين وخاصة ديكارت ، فهو بلا شك ابتكار طريف لم يعرفه القدماء ولا رجال العصور الوسطى : ولكنه مع ذلك ليس الا مظهر اكتمال العقل الواثق بنفسه ، الشاعر بتبعته ، المؤمن بثبات بنيانه وتركيبه . فاكشافه متشخص مع النظام الثابت الذي أجمع القدماء والمحدثون على أنه أساس العلم والمعرفة .

نعم ، قد انتهى الفلاسفة المحدثون وديكارت في طبيعتهم الى مواقف فلسفية تغايف نظريات الاقدمين أشد مخالفة . وأبلغ مظهر لهذا الاختلاف تلك النظريات التي أطلق عليها اسم « المثالية » ايديالزم (idéalisme) : بعضها يرجع العالم الى معاني النفس القطرية ، والبعض الآخر يفترض الموضوعات ثمره تركيب العقل لمادة خام لا يدرى عن أصلها شيئا ، والبعض الاخير يرى فيها ثمره تقدم العقل الانساني وتطوره المطرد . الا أنه مهما كان من أمر هذا الاختلاف فان مواقف الفلسفة الحديثة من ديكارت حتى هيغل ، فيها دلالة واضحة ، على ايمان بالعقل الرشيد ، وبقوته وسيادته ، هذا العقل الذي رأى فيه بعض الاقدمين ، غاية العالم العليا ، والبعض الآخر مبدء الحياة السارية في الكون بأكمله .

أما المعاصرون، فجاءوا يتلمسون لذلك العقل المنظم المشروع سبيلا، فلم يجدوه . أما الانسان ، ففي نظرهم ، غير ذلك الذي تكلم عنه ديكرارت .

يجمع المعاصرون على دراسة الانسان في وجوده الواقعي ، وينكرون ادعاء الذين رأوا في العقل سلطة قائمة بذاتها ، حاكمة في الانسان والعالم . وليس الانسان كما تصور ديكرارت كائنا مفكرا حصر تفكيره في ذاته ، وأغلق على نفسه نوافذ العالم اغلاقا محكما . كلا ! ان الانسان في صلة مستمرة « ١ » : في صلة مع العالم المادى : جذور الانسان منبعثة منه . متأصلة فيه . في صلة مع البدن . فلاقوانين خاصة بالبدن وحده ، ولا بالنفس وحدها ، وانما حياة مشتركة . في صلة مع الغير : حتى أن المعتكف في مخدعه لمدين للآخرين بحياته المادية ، وموضوعات فكره وعلمه .

أنظر لفياسوف مثل هوسرل (Husserl) تجده قد رفض ارجاع المعرفة الى فعل النفس وحدها أو الى فعل الموضوع وحده ، واعتبر المعرفة حياة مشتركة ، واعتبر الذات مركز علاقات في تغير مستمر لاتخرج النفس ، من احداها حتى تدخل في أخرى .

أنظر الى جبريل مارسيل . لم يفهم لأنا معنى مالم يثبت، أمامها « أنت » ولم يقرر لأنا وجودا الا لانها قابلة لان تصبح « أنت » - أنظر الى الفلاسفة الوجوديين ، وفي مقدمتهم هيديجر ، تجدهم قد نبذوا الجوهر المفكر ، المنفصل عن الجسم في تفكيره . بل قد نبذوا الجوهر اطلاقا ، وأحلوا محله وجودا هو أشبه الاشياء بالحقول المغنطيسى ، مجال تأثر وتأثير « ٢ » . درسوا الانسان كائنا « ملقى في العالم » « ٣ » كما قال بسكال : في مغامرات مستمرة ، لا يخلص منها الا ليلقى نفسه ونجا لوجه أمام الموت .

لو اتقلنا الآن للمنهج ، لحظنا أنه لاسبيل لمعاصر أن يتخذ سنن راتبه متناسقة ، كما هو الامر عند ديكرارت ؛ وان حل المشكلات لايفترض عناصر بسيطة يركبها العقل تركيبيا منتظما . بل لابد من بحث كل مشكلة

(1) *Thèmes* p. 18

(2) p. 105

(3) p. 58.

على حدة ، في ضوء المبادئ الصالحة لها ، دون سواها . وأمر هذا بين في دراسة المعاصرين لمشكلات النفس أو المجتمع . وفي هذا الصدد يقارن الاستاذ برهيه بين منهج رجل مثل دوركهايم في دراسة الظواهر الاجتماعية وطريقة عالم معاصر مثل ليفي ستروس : فبينما كان منهج دوركهايم استداليا تركيبيا ، نجد ليفي ستروس يعتمد في الاغلب على ملاحظات مباشرة ، ويقف طويلا في مرحلة وصف الوقائع ؛ دون الاستعجال الى تفسيرها . أو الى ارجاعها لمبادئ عامة - ولا نجد عند المعاصرين أيضا تلك الروح الطموحة التي نلاحظها عند هيجل ، ولا الثقة الوطيدة في المستقبل ؛ ولا ارادة توجيه السياسة أو الاقتصاد حسب نهج عقلى عام . ان نظرية الفيلسوف المعاصر ضيقة محدودة ، غير أنها في بعض الاحيان نور وهاج يلقى على الانسان وعلى النطاق الضيق القائم حوله .

وليس هناك أدل على اتخاذ طريق جديد ، من اختفاء عدة دراسات كانت شائعة عند المحدثين : فاختفى التحليل الذاتى البحث للنفس ، وحل محله وصف للانسان في اتصاله بالبدن والغير والله ، ولنقارن في هذا الصدد بين يوميات رجل مثل أميل (Amiel) عاش أثناء القرن التاسع عشر ، ويوميات المعاصر جبريل مارسيل «^١» . قد اختفى أيضا ما سمي منذ كبط « نظرية المعرفة » : أى محاولة تحديد مبادئ أولية توجه العقل في معرفة أى موضوع . ثم اختفت أخيرا جميع المحاولات العامة للتفسير . كالنظرية الترابطية associationisme التى ترجو اقامة العالم على وقائع نفسية تافهة كالاتحساس أو تداعى الخواطر «^٢»

الا أن أهم ما نلاحظه هو اختفاء المثالية « ايديالزم » فى مختلف صورها . وكان من بين آخر ممثليها الاستاذ ليون براشفيج صديق برهيه وقد توفى عام ١٩٤٤ . كان هذا الاخير موقنا باستقلال العقل الداخلى ، وبقدرة النفس على حيازة جميع القيم وعلى ادراك الله تعالى ، دون أن تضطر فى ذلك

(1) Thèmes p. 19-20.

(2) p. 21

الى الخروج عن ذاتها وتهديد استقلالها الداخلى . الا أن التحليلات المعاصرة
لاحوال المعرفة والعواطف دلت على أن التمردى « transcendance أو خروج
النفس عن ذاتها ونطاقها ، هو فى أصل النفس ، ظاهر فى الإدراك الحسى ،
فى الحب والكرامية ، فى الصلاة والعبادة .

وبالجملة فحال الفلسفة اليوم غير حالها بالامس ، ولو رجع فيلسوف
توفى من خمسين سنة الى الحياة والتفلسف ، وجب عليه ابتداء كل شيء
من جديد . وأغرب الامور أن الاستاذ برهيه كان عائشا وفيلسوفاً من
خمسين سنة أو أكثر . وكان فى بداية تفكيره مسائرا لنزعات عصره ، مرتاباً
فى قيمة الفلسفات الجديدة الناشئة . ولكن سرعان ما رأيناه فى العشرين
سنة الاخيرة من حياته ، يراجع مواقفه الواحد بعد الآخر ، وسرعان ما رأيناه
يعجب بطرق ومناهج لم تدخل لفكره فى حسابان ، ويسلم بتناجج كان أبعد
الناس عن التسليم بها . ولم يكن مناقضا لنفسه فى ذلك ، بل كان دائماً على
تحقيق رأى الاغريق فى الفلسفة ، وهو أنها حياة قبل أن تكون فكراً أو
نظراً .

نجيب بلدى

(1) *Thèmes* p. 53-54; 58.